سلة مهملات

مقطف لقيتي الخطاب القاه في حفلة جمعية غرف القراءة في بحمدون في ٣٠ ايلول سنة ١٩١١

« يا ايها المغترُّ في عهد الصبا فتظنهُ عهداً يطول مدى الدهور »
« إحسب حسابك لا تقل اني من الـ أيام عندي ذلك الارث الكبير »
« واحرص على الساعات واصرفها كما لو كنت ذاك المعدم العاني الفقير »
« واعرف ليومك قدره او ان تكن للان تجهله تخبرك القبور »
« فهي التي في جوفها الشيخ الكبيـ ـر وقربه ذاك الفتى الحدث الصغير »

سيداتي واخواني

تلطفت عمدة هذه الجمعية واحسنت ظنها بي فدعتني الى محادثتكم مرتين. فحدثتكم في العام الماضي عن الطبيعة . واحدثكم الآن عن الاهمال . ولا اراني مضطراً لشكرها ومدحكم فان ذلك تحصيل حاصل . يغني عنهُ مجرد هذا الاحتفال . وحسبنا مجاملات مبتذلة فان الشرق يئن من التافهات

ذهبت في الامس انتزه بين الكروم والشمس عالية والحرُّ شديداً فتفيأت جوزة متاملاً جردة الجبال متأثراً مما جناه عليها الاهمال فخطر في بالي الخطاب فحاولت اختيار الموضوع فامتدَّ الفكر الى الرصيف ففكرت هنيهةً في جردته وعدم الاهتمام به وهو خير مكان للنزهة في بحمدون وان يكن الاهمال ابقاه على حاله وحرم المصيفين جماله

فساءني اهمال الانسان الطبيعة وجهله كيفية الاستفادة منهـا . ساءني عدم احترامه لها ومساعدة الله على تحسينها ومعاونتها على المدّ بخيراتها . ساءني ذلك فتأثرت ولكني عدت الى نفسي وقلت — حبذا لو توقف الاهمال عند حدّ الشجر لكان الشرق باحسن حال . ولكنهُ قد اتصل بكل الشؤون بالاخلاق

والاجتماع والعمران حتى صار الباحث فيما يرى ذاته كأنه في سلة مهملات

فراق الانشاء حينئذٍ مجاراةً لميل في النفس فكتبت جملاً متقطعة املاها التأثر على القلم فجاءت مكهربة حادة ، راجمتها فرأيتها جارحة مؤلمة وان تكن سداها الحق ولحمتها الآمال . فآثرت طيها على النشر ضناً بحاسات قومي من التأثر فمزقت الاوراق وجمعتها والقيت حوالي باحثاً عن سلة المهملات لارميها فيها كأنني في مكتبي . ولا تستغربوا هذا فان لكل كاتب سلة بجانب مكتبته لا يستغني عنها خصوصاً اذا كان صحافياً

ولم يكن نسياني مكان وجودي شرود ولبّ يذهب الله او ذهول نبيّ يستمد الوحي والالهام بل لم يكن ايضاً نوبة هستيرية ولا عرَض جسدية وانما كان نتيجة عادة الفتها بوضع المهمل في سلته . والعادات تنسي الناس الحقائق

وعدت بعد ذلك الى انتخاب موضوع لحديثي فرأيت الاهمال خير ما يناسبنا التحدث به ونحن اليوم نرسف بقيوده فلعلّ تفهمنا الذكرى فتقطع اغلاله وتهب باهمالنا التحرر من رقه

فجمعت سلة من المهملات وانا تحت الجوزة لم ابارح مكاني وملأتها مما حضرني دون احتياج الى الجمع من غير مكان . فاسمحوا لي اذاً بان اصف لكم ما في سلتي واعدد موجوداتها . ولا تستخفوا بها فهي مصنوعة لا حسبة . لا تظنوا السلة محبوكة من قصب او من عيدان ولا ما فيها جوامد تنظر بالعين وتلمس باليد . لا ، بل هي مجموع من مهملات الامة نظرت اليها بعين الفكر وجمعتها يد القلم ولا تتلوني ارميا يرثي اورشليم او المعري يندب العقل او قولني يبكي مجد الشرق حتى ولا مؤنباً يبكت العواطف او يوماً يندب بين الاطلال . لا ، لست منذراً بالخراب بل محدثاً يروي الامور على علاتها دون تحريف . وفي

مثل هذا عبر للمفكرين

كيفما التفت السوري في بلاده يرى جبالاً جرداء وسهولاً قاحلة ، شجراً عقيماً وزرعاً ماحلاً ونبتاً ضعيفاً وزهراً هزيلاً . يرى خرائب واطلال ، اقذاراً ونفايات ، اطماراً باليةواشياء رثة ، هيئات شنيعة ومشاهد تدمي النظر

كيفما التفت يرى وجوهاً منقبضة وعيوناً مغشاة ، السنة طويلة واذاناً صماء وصدوراً ضيقة ومعدماً مايكة . يرى قلوباً واجفةوعقولاً مقيدةوضمائر لا فعل لها . يرى اخلاقاً سيئة ونفوساً فاسدة ، نبوغاً ضائعاً ومواهب مدفونة

كيفما التفت يرى فقراً وذلاً ، جهلاً وغباوة ، استبداداً وظلماً وتقاطعاً ومعاداة ، يرى عزائماً واهية وهماً واهنة ، خمولاً وجموداً ، فراغاً وكسلاً وتاخراً وانحطاطاً

اموراً تحزن النفس وتؤلمها يراها السوري في بلاده كيفما التفت . فلا هو يقوى على التخلص منها ان اراد ، واذا استطاع لم يرد . وقد يتجاهلها واسبابها فيتساهل عنها اما تسلياً بالاطلاع عليها او ادعاء بقصد ملافاتها ، ام رغبة منه في تجنبها والوقاية منها ان كان حقيقة يجهلها . على ان معرفتها لا تجدي نفعاً اذا لم يقرن القول بالفعل ويضع الفكر بمجرى العمل ونحن لم نعد باحتياج الى استطلاع هذه الادواء فقط فانها اشهر من الشمس والاسباب اوضح من النور . ولكننا نحتاج الى معرفة انواع العلاج واصول التمريض والعمل بموجبها تماماً . وهذا لا يكون مع الاهمال

يعوزنا العزم والاقدام ، السعي والاجتهاد ، النشل والثبات ، يعوزنا التمتع بالحق والقيام بالواجب . امور ضرورية لنا ولا سبيل الينا مع الاهمال

فالاهمال اذاً مؤخرنا عن بلوغ محجة العمران ، مبقينا على حالنا ، مؤدي

بنا الى الدمار . هو ذا اليم معدٍ ، وباؤه مستفحل . شبح مخيف يرون ظله في كل مكان ، في البيت والمدرسة والمعبد والمحكمة ، في المكتب والجمعية والنادي ، في الحقل والمصنع والسوق ، في الجسد والنفس ، في المادة والروح وخصوصاً في القلب والعقل والضمير

في كل اشيائنا يرون الاهمال واضحاً جلياً ولا تخلو اعمالنا من جرائمه مرات . جميعنا مهملون وكل ما فينا مهمل ايضاً اجسادنا ونفوسنا، قلوبنا وعقولنا وضمائرنا كلها مهملة ومحدثكم في طليعة المهملين المهملين

اهمل بعضنا القلب فلم يراع شعائره ولا قوّم امياله . لم يعدل مطاعمه ولا حسن آماله ، ولم يهذب عواطفه ولا نزّه اهواءه

واهمل غيره العقل فلم يجار استعداده ولا نمى اذكاءه . لم يكسر قيوده ولا ايد احكامه ولم يوفر معارفه ولا وسع ادراكه

واهمل الآخر الضمير فلم يقوِّ نفوذه ولا عزّز مقامه . لم يحرر قضاءه ولا رقى احساسه ولم يسمع لتوبيخه ولا استرشد اراءه

واهمل سواه الثلاثة معاً فلم يسلط الضمير على العقل والعقل على القلب ، لم يخضع هذا لذاك ولا ذاك لذلك

واهمل البعض الجسد فلم يقوّه ولا حافظ على صحته واهمل النفس فلم يرفعها ولا نزهها . ولم يتمرن على التوفيق بين مطالب الاثنين

اهمل والدون ابناءهم فنشأوا بلا تهذيب وعاشوا اشراراً مضرّين ما استفادوا ولا افادوا . ورجال زوجاتهن فمرروا عيشهن واذلوا نفوسهن ومكنوا الضجر واليأس منهن

أهملت اخلاق فتملكها الفساد وتفوس فتولاها الشر وهيئات فقبحها الاهمال

أهملت بيوت فغادرها الترتيب وودعتها النظافة ، فقدت حسن المعيشة وخسرت نضارة العافية ، ولازمها النزاع وعشش فيها النكد وآل امرها الى الخراب

وأهملت مدارس فتشوهت اداب ابنائها وامتلأت ادمغتهم قواعد لا لزوم لها . أوثرت فيها الكماليات على الضروريات ولم تراع اصول حفظ الصحة ، وانحطت صناعة التعليم وذهبت اوقات العلم جزافاً

وأهملت معابد فابتذل دينها وتعززت مكانة الطقوس ، تأصلت فيها الاوهام واستقرت السخافات وتمدد الوسطاء بين الله والناس

وأهملت محاكم فتصدر فيها الخلل وازوى النظام ، ظهرت الاغراض واختبأ القانون ، راج الدرهم وضاع الحق ، وتبرأ المجرمون وتجرم الابرياء

وأهملت اراض فذبل زرعها وذوت ازهارها ، يبست اشجارها وعدمت اثمارها . وبارت منبتة شوكاً واعشاباً سمة

وأهملت مصانع فتفهت مصنوعاتها وكسدت . عتقت ازياؤها وبطلت وتعطلت ادواتها وتوقفت

وأهملت متاجر فتكردست بضائعها وتلفت . واستغرقت نفقاتها ارباحها فخسرت واستحقت ديونها فافلست

أهملت جمعيات فانفرط عقدها وشركات فتفككت رأس مالها وادلرات فآلت امورها الى الفوضى ورئاسات فافضت الى تمرد المرؤوسين وعبث بالاحكام السلطة وبالاعمال فجميع شؤوننا وكل اشغالنا يشوهها الاهمال ونحن نشقى بنتائجه . كلها قد عشش فيها وقد استقر امناً مطمئناً

اهمال روحي واهمال مادي ونحن بين نارهما سائرون ولا ننفك عنهما حتى نغير ما بانفسنا . ولا يغير الله ما بالناس حتى ما بانفسهم يغيرون

الصغائر تولد الكبائر · والاهمال يؤدي الى الاهمال · كل ما يؤجل مرات بهمل وما تحاذرون اهماله افعلوه في حينه فتغنموه

هذا دواء الداء لكنه لا يشفي بالتمني ولا بالامل حتى ولا بالقول بل بالعمل

فيا من تتكلون على الله في كل شيء الا تعتمدون على انفسكم في بعض الاشياء · يا من تستسلمون الى الاهمال هلا تشعرون بالخمول وتعلمون مصير المهملين؟ هلا تتغلبون على الشخصيات وتتفقون في العموميات

جميع امورنا تحتاج تحسيناً وكل شؤوننا يلزمها اصلاح · وليس امامنا الا العمل · الا الجهاد

فلنعمل اذاً في سبيل التحسين ولنجاهد في طريق الاصلاح · لنتعب ونعرق · وما اللذ الراحة بعد التعب والربح بعد العرق · ما اللذ الشغل وما اكره الكسل

تاملوا في جردة الجبال وحقل السهول في عقم الشجر وعمل المزرع وضعف النبت وهزال الزهر · تاملوا في عديد الخرائب وكثرة الاطلال · في تجمع الاقذار وتوفر النفايات · في بلى الاطمار ورثاثة الاثياب وقبح المشاهد والهيئات

تاملوا في انقباض الوجوه وغشاوة العيون وطول الالسنة وصمم الاذان · في ضيق الصدور وتلبك المعد · في وجل القلوب ولقيد العقول وسكوت الضمائر في سوء الاخلاق وفساد النفوس · في ضياع النبوغ ودفن المواهب

تاملوا في كل ذلك وابحثوا معي في ما يخلصنا منه · ولا تتعبوا كثيراً فان البحث يدلنا على امر واحد وهو الشغل

الشغل في كل شيء · في ما نحتاج اليه من التحسين والاصلاح

فلنشتغل اذاً ولا نهمل امراً · فبالشغل خير لنا وبالاهمال اضرار